

# خطاب المرأة النافذ

قراءة لأربعة أمثلة في القرآن الكريم

د. علي بن معيوف المعيوف

جامعة الملك سعود - كلية الآداب

قسم اللغة العربية وآدابها

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين، ورضي عن صحابته أجمعين.

تقدم هذه الورقة قراءة لخطاب المرأة النافذ في أربعة أمثلة من القرآن الكريم تمّ تحديدها، ويصدق عليها جميعا وصف نفاذ الخطاب من حيث تحقق المطلب الوارد في الخطاب ووقوعه بالفعل. وتقف هذه القراءة على صورة استخدام اللغة في ذلك الخطاب، كما تحاول أن تستنبط أدوات نفاذ الخطاب في مقاماته المختلفة في الأمثلة الأربعة، وتستفيد هذه القراءة من كتب التفسير في ذلك الجزء من القصص.

وقد بدأت القراءة بإيراد الخطابات الأربعة النافذة موضوع القراءة، مع تأمل في كل خطاب على حدة، ثم شرعت في استعراض اللغة هذه الخطابات النافذة مجتمعة، وما ارتبط بها في هذه القراءة، عارضا ما بدا لي أنه عوامل تساعد في نفاذ الخطاب، ومختما بملاحظات من نتائج التأمل في هذه القراءة.

### أمثلة الخطاب النافذ:

#### المثال الأول: بلقيس (ملكة سبأ)

ترد قصة بلقيس ملكة سبأ في سورة النمل في الآيات (٢٠-٤٤)، وسأتناول هنا الآيات القرآنية التي قص الله فيها حوار بلقيس مع الملأ من

قومها إلى نهاية القصة التي تنتهي بإسلامها مركزاً على الآيات التي تقصّ خطاياها النافذ.

قال الله تعالى: ﴿اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾ ﴿٢٨﴾ قالت يا أيها الملأ إني ألقى إليّ كتابٌ كريمٌ ﴿٢٩﴾ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿٣٠﴾ ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين ﴿٣١﴾ قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ﴿٣٢﴾ قالوا نحن أولو قوةٍ وأولو بأسٍ شديدٍ والأمرُ إليك فانظري ماذا تأمرين ﴿٣٣﴾ قالت إنّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلةً وكذلك يفعلون ﴿٣٤﴾ وإني مرسلَةٌ إليهم بهديةٍ فناظرَةٌ بم يرجع المرسلون ﴿٣٥﴾ فلما أن جاء سليمان قال أتمدونني بمالٍ فما آتاني الله خيراً مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴿٣٦﴾ ارجع إليهم فلنأتيتهم بجنودٍ لا قبَل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلةً وهم صاغرون ﴿٣٧﴾ قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴿٣٨﴾ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقويٌّ أمينٌ ﴿٣٩﴾ قال الذي عنده علمٌ من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكرُ أم أكفرُ ومن شكرٍ فإنما يشكرُ لنفسه ومن كفرٍ فإنّ ربي غنيٌّ كريمٌ ﴿٤٠﴾ قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ﴿٤١﴾ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴿٤٢﴾ وصدّها ما كانت تعبد من دون الله إنّها كانت من قومٍ كافرين ﴿٤٣﴾ قيل لها ادخلي الصرح فلما

رأته حسبته لجةً وكشفت عن ساقها قال إنه صرَّحٌ ممرِّدٌ من قوارير قالت ربّ  
إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين ﴿٤٤﴾.

في هذه الآيات الكريمة ترد قصة بلقيس مع سليمان عليه السلام،  
وكيف أدارت بلقيس دعوة سليمان عليه السلام لها ولقومها إلى الإسلام لله  
رب العالمين، وهي كما نرى قصة موجزة.

### وإذا تأملنا الأحداث التي وردت في القصة:

- سليمان عليه السلام يتفقد الطير فلا يرى الهدهد.
- الهدهد يأتي من سبأ ومعه خبر قوم سبأ: امرأة تملكهم، وأوتيت من كل شيء، ولها عرشٌ عظيم، وهي وقومها يسجدون للشمس من دون الله.
- سليمان عليه السلام يرسل رسالة مع الهدهد إلى سبأ؛ لينظر أصدق الهدهد أم كان من الكاذبين، ويأمره أن يلقي الكتاب عليهم ويتولى عنهم لينظر كيف يرجعون.
- بلقيس ملكة سبأ تتلقى الكتاب، وتجمع الملائم من قومها للتشاور في الأمر.
- وأمام الملائم من قومها، بلقيس تصف الكتاب الذي جاءها من سليمان عليه السلام بأنه كريم، وتتلو عليهم ما جاء فيه.

- بلقيس تطلب الرأي والمشورة من الملأ الحاضرين، وتؤكد لهم أنها ما كانت قاطعة أمرًا إلا بعلمهم.
- الملأ يصفون ما دولتهم عليه من قوة وبأس شديد، ملمحين -على الأقل- إلى قدرتهم على المواجهة إن تعرضوا لغزو، وهم بعد ذلك يفوضون الأمر إلى الملكة بلقيس لتقرر.
- وعلى الرغم من أن الملأ فوّضوا الملكة بلقيس بالأمر إلا أنّ بلقيس تتكلم بحكمة ومنطق، فتورد أثر الحرب لو اختارت رفض الدعوة، وأنّ نتيجة الحرب -إن حصلت- خرابُ البلاد، وأنّ من يحتلّ أرضًا يجعل أعزة أهلها المهزومين أذلةً.
- بلقيس تختار إرسال هدية إلى سليمان عليه السلام لتنظر أثر هذه الهدية.
- سليمان عليه السلام يرد على الرسول بالهدية مستصغراً أمرها، ومخبراً أنّ ما آتاه الله خيرٌ مما آتاهم، ويأمره أن يرجع إليهم بهذا الخبر "فلنأتيهم بجنودٍ لا قبَل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلةً وهم صاغرون".
- سليمان عليه السلام يطلب من يأتيه بعرش بلقيس قبل أن يأتوا إليه مسلمين.
- عرش بلقيس يصل إلى سليمان عليه السلام قبل أن يرتد إليه طرفه.
- سليمان عليه السلام يأمر أن يُنكَّر عرش بلقيس لتختبر به عند وصولها.

- بلقيس تصل، وتجيّب عن سؤالهم إياها "أهكذا عرشك" بـ "كأنه هو".
- بلقيس تُدعى إلى دخول الصرح الممرّد فتظنه ماءً فتكشف عن ساقها.
- تُخبر بلقيس أنه صرّح ممرّد من قوارير.
- بلقيس تُقرّ بظلمها لنفسها وتُسلم مع سليمان لله رب العالمين.

وهنا تنتهي القصة.

ويتتبع القصة، وما يخص منها خطاب بلقيس النافذ وما يتعلق به يمكن وصف بلقيس بالحكمة ورجاحة العقل<sup>١</sup>، وهو أحد العوامل المؤثرة في أن ينفذ خطابها، ومن الأحداث الدالة على عقلها وحكمتها:

١- جمعها لأشراف قومها وأهل الرأي والحل والعقد بعد أن وصلتها رسالة سليمان عليه السلام، وذلك للتشاور، وأنها لم تبدأ برأيها مباشرة، بل قرأت عليهم الرسالة التي وصلتها، ثم طلبت من الملأ رأيهم في الأمر الذي سمعوه.

٢- وصفها الكتاب الذي وصلها من سليمان عليه السلام بأنه كريم قبل أن تقرأ ما فيه على الملأ من قومها، على الرغم من أنّ محتوى الكتاب قد يبدو في الظاهر لغير المسلم المتبّع لأمر سليمان عليه

١ نقل بعض المفسرين وصفها بذلك لأكثر من حادثة وردت في القصة، من ذلك ما ورد في (فتح البيان في مقاصد القرآن) لأبي الطيب البخاري ج ١٠ / ص ٤٧.

السلام أنه يدعو إلى التبعية والاستسلام، وهي مع ذلك تصفه قبل قراءته على الملأ بأنه كريم. ووصف الكتاب بأنه (كريم) يحمل في طيه إشارة ضمنية للتقدير بغض الطرف عن محتواه، كما أنه قد يؤثر في المتلقي ويخفف حدة تلقيه لمحتوى الوارد فيه.

٣- تنبيهها للملأ من قومها وتقديمها لكلامها بالمال؛ مآل أعزة القوم إذا احتلت بلدهم، وكأنها تستميلهم بطريقة غير مباشرة إلى رأيها بعد أن أبدى الملأ رأيهم، وكان ذلك قبل أن تبدي رأيها أو قارها.

٤- عدم تسرعها في الرأي بعد أن فوضها الملأ من قومها، بل اختارت أن ترسل هدية إلى سليمان عليه السلام، وتنتظر إلى أن يرجع المرسلون بخبر؛ فهي تتدرج في الأمر لتسبره من أطرافه. فكأن عملها هذا تمهيداً واختباراً: تمهيداً لطلب الصلح والصدقة، واختباراً لردة الفعل تجاه هذه الهدية. ويمكن أيضاً فهم الهدية بأنها تعبر عن الرغبة في الصداقة، فالهدية تحقق التعبير عن الأمور الثلاثة مجتمعة: إبداء الرغبة في الصداقة، والرغبة في السلم، واختبار موقف سليمان عليه السلام.

٥- نوع الهدية التي أرسلتها، ففي الآية الكريمة ذكرت الهدية نكرة دون وصف أو تحديد، ولكن كتب التفسير تشير إلى أنها هدية ذات

١ جاء في بعض كتب التفسير أنّ الملأ فوضوا الأمر إليها لعلمهم بصحة رأيها وقوة عقلها. يُنظر (فتح البيان في مقاصد القرآن) لأبي الطيب البخاري ج ١٠ / ص ٤٠.

قيمة عالية في المعتاد، وهي من النفائس<sup>١</sup>، وكون الهدية نفيسة جدا يدلُّ على رجاحة عقلها، إذ بها تُظهرُ قدرَ ملكها، وتحقِّق المعتاد تحقيقه في مثلها.

٦- اختيارها لرسول من عقلاء قومها لحمل الهدية إلى سليمان عليه السلام كما تشير بعض كتب التفسير<sup>٢</sup>.

### خطاب بلقيس النافذ:

يمكنُ القول إنَّ خطاب بلقيس النافذ في هذه الآيات هو الذي يقصُّه الله سبحانه وتعالى في الآيتين الكريمتين: ﴿قالت إنَّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلةً وكذلك يفعلون﴾ ﴿٣٤﴾ وإني مرسلَةٌ إليهم بهدية فناظرةٌ بما يرجع المرسلون ﴿٣٥﴾

وقد بدأت الملكة خطابها النافذ بأن مهَّدت لرأيها بالتذكير بحقيقة يبدو أنها معروفة تاريخياً، وهي حقيقة سيمسها ضررها، ويمس المملأ المتحدثين من أهل الرأي من قومها، فهم أعزة القوم، ثم اتخذت قرارها بوضوح، وأكدت توجهها له، وعزمها عليه، وهو ما فعلته بالفعل.

١ نقل أنها لبنة من ذهب، وصفائح من ذهب في أوعية من الديباج، وقيل مائتي فرس على كل فرس غلام وجارية، وقيل غير ذلك. يُنظر في ذلك (فتح البيان في مقاصد القرآن) لأبي الطيب البخاري، ج ١٠ / ص ٤١.

٢ ينظر: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) للسعدي، ج ٥ / ص ٥٧٧، و٥٧٨.



ومن حيث إدارة الخطاب، نجد أن بلقيس استمعت أولاً إلى الملائكة حتى استنفدت رأيهم وقولهم، وبعد أن انتهوا من عرض رأيهم فوضوا إليها الأمر، فبدأت كلامها بالانتقال إلى النتيجة مباشرة، وهي نتيجة محتملة، ومثل هذا الانتقال مؤثر في العادة بالإقناع، وركزت في النتيجة على أثر خسارة الحرب على عليّة القوم وأعزتهم، وهذا يجعل أثر كلامها أكبر في اقتناع الملائكة الذين هم أعزة القوم بأثر الحرب عليهم لو وقعت وخسروها، فهم سيكونون أكبر المتضررين؛ لأنّ التحول في حياتهم سيكون كبيراً من النقيض إلى النقيض، ثم بعد عرضها هذه الفكرة التي لو وقعت فإنها ستكون مفزعة بنجدها تقرّر بهدوء ووضوح صارم رأيها الذي سيكون فعلاً.

ويلاحظ أنه لم ترد أيّ إشارة إلى مناقشة أحد من الملائكة قولها بعدما قالت، بل نجد الآية الكريمة التالية تنتقل بنا مباشرة إلى وصول الهدية إلى سليمان عليه السلام.

## المثال الثاني والثالث والرابع:

امرأة فرعون وأخت موسى وابنة شعيب، وكلهن وردت خطابتهن في معرض قصة موسى عليه السلام التي وردت في سورة القصص:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طسم﴾ ١ ﴿تلك آيات الكتاب الميم﴾ ٢ ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾ ٣ ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ ٤ ﴿وزيد أن نم على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين﴾ ٥ ﴿وتمكّن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ ٦ ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ ٧ ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ ٨ ﴿وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون﴾ ٩ ﴿وأصبح فرؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾ ١٠ ﴿وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنبٍ وهم لا يشعرون﴾ ١١ ﴿وحزنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾ ١٢ ﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ١٣ ﴿.

إلى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ فخرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَحْوَتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ... ﴿٢٩﴾

يرد ذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وفي سورة القصص يقص الله سبحانه وتعالى قصة موسى مع فرعون، وترد في أثناء هذه القصة ثلاثة خطابات نافذة لثلاث نساء: امرأة فرعون، وأخت موسى عليه السلام، وابنة شعيب.

## الخطاب الأول: خطاب امرأة فرعون:

كان فرعو يقتل من وُلد لبني إسرائيل من الذكور عاما ويستبقيهم عامًا، ويستحيي من يولد من الإناث، وكان مَوْلِدُ موسى عليه السلام في العام الذي يُقتلُ فيه مَنْ وُلِدَ من الذكور من بني إسرائيل، وفي سورة القصص ترد قصة موسى عليه السلام حين ألقته أمه في اليم بأمر الله لما خافت عليه، فألقاه اليم بالساحل، فالتقطه آل فرعون، وجيء به إلى بيت فرعون، فلما رأت امرأة فرعون موسى عليه السلام بعد التقاطه من اليم في وسط الأحداث المذكورة من أمر فرعون بقتل من يولد لبني إسرائيل من الذكور قالت فيما يقصه الله سبحانه وتعالى: ﴿وقالت امرأة فرعون قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا وهم لا يشعرون﴾، وتصريح بعض التفاسير بأن كلامها كان موجَّهًا إلى فرعون<sup>١</sup>.

وهنا جاء خطابُ امرأة فرعون النافذ، إذ نجدُ امرأة فرعون تبادر بالكلام، وتختار البدء في كلامها بما يمكن وصفه بالمحفز العاطفي لفرعون "قرة عين لي ولك"، في جملة ذات صبغة الثبوت وهي الجملة الاسمية، وكأنها يقينية، ثم تنتقل من هذه الجملة المحفزة عاطفيًا إلى جملة الطلب المستخدم

١ يُنظر في الإشارة إلى ذلك (فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب البخاري)

ج ١٠ / ص ٩٥.

٢ يُنظر (تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم) ج ٢ / ص ٥١٠.

فيها النهي المباشر "لا تقتلوه" المتلو بالرجاء الذي ورد وكأنه جواب للنهي عن قتله "عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا".

وفي خطاب امرأة فرعون نجد التمهيد للطلب بذكر المآل المتوقع "قرة عينٍ لي ولك" كما فعلت بلقيس، والختم بالمآل والمؤمل "عسى أن ينفعنا" وبينهما الطلب "لا تقتلوه" بصيغة النهي.

كما نجد امرأة فرعون تستثير العاطفة برغبتها في أن تتخذه ولدًا، إذ يرد في كتب التفسير أنها "كانت لا تلد، فاستوهبته من فرعون، فوهبه لها"<sup>١</sup>، ويرد أيضًا أنه "كان يموت أولادها، فقالت: أو نتخذه ولدًا"<sup>٢</sup>، كما ورد أنه لم يكن لفرعون ولدٌ ذكرٌ<sup>٣</sup>، فنجد امرأته تشركه معها ﴿قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾؛ تستعطفه، وتستثير فيه العاطفة والأمل بما ترجوه في موسى لهما معا. ونجدها في استنارتها العاطفة لدى فرعون - كما يقصه القرآن - تخاطبه أولاً بصيغة الخطاب للمفرد: ﴿قُرَّةَ عَيْنٍ لِي

١ فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب البخاري ج ١٠ / ص ٩٢، ويُنظر في ذلك: جامع البيان للطبري، ج ٢٠ / ص ٥٠، ٥١، ٥٢.

٢ تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني، ج ٤ / ص ١٢٤.

٣ يُنظر (تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي) ج ٢ / ص ٥١٠.

ولك ﴿١﴾، وهي بهذا تخاطب فيه ذاته منفصلةً في (ولك)؛ لتستميله أكثر إلى عدم قتل موسى عليه السلام، فهي تستثير في ذاته العاطفة والأمل بمآل خيرٍ تأمله لها ولفرعون في المستقبل من هذا الطفل الذي التقط من اليم.

## الخطاب الثاني: خطاب أخت موسى عليه السلام:

وعلى الطرف الآخر من اليم أم موسى عليه السلام تكاد تبدي ما في نفسها من الجزع على ابنها لولا أن ربط الله على قلبها، وتطلب الأم من ابنتها أخت موسى عليه السلام أن تقصّ أثر الأخ وتتبع خبره، وأين أصبح مآله. وهناك في القصر بعد قبول رغبة امرأة فرعون في استبقاء الطفل الملتقط من اليمّ حرمت المراضع على موسى عليه السلام فلا يقبل منهن مرضعاً، و" كانت امرأة فرعون طلبت لموسى المرضعات ليرضعه، فلم يرضع من واحدة منهن" <sup>١</sup>، وبين حزن أمها وحال أخيها والاحتمالات المتعددة التي كان يمكن أن تكون مصيره وخوفها من انكشاف أمره وأمرها وأمر أمها بصُرت بأخيها "متجانفة محتالة" <sup>٢</sup>، فلما رأت حاله وحالهم معه وحنوهم عليه وعدم قبوله المراضع تُقبل عليهم لتتحدّث معهم بخطابها الذي نفذ: "هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾"، ويعود الغلام إلى أمه بلطف الله وقدره.

وبتأمل الموقف كاملاً، وخطاب الأخت النافذ في أثناء ذلك الموقف، نجد أخت موسى تتصرّف بحكمةٍ عالية، فمن وسط أجواء الإشفاق على أمها وحالها التي تعلمها منها، والخوف على أخيها والخوف من آل فرعون

١ فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب البخاري، ج ١٠ / ص ٩٥.

٢ فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب البخاري، ج ١٠ / ص ٩٤.

ومن افتضاح أمرها وأمر أخيها وأمها، وتداخل أمور تمنع من كشفها عمّا تبحث عنه، فهي بذلك كأنها جُرِّدَت من أدوات البحث إلا ما يفتحه الله عليها من أسباب، فتأخذ الأمر بحكمةٍ وروية، وتقصّ أحوالها محاولةً ألا تثير ريباً لدى أحد، وقد تمكنت من ذلك ﴿فبصُرْت به عن جنبٍ وهم لا يشعرون﴾، جاء في تفسير ذلك: "وهم لا يشعرون أنها أخته، وأنها تقصّه، وتتبع أثره"<sup>١</sup>، فلما عَلِمَت الأمر و"رأت امتناعه من الرضاع وحنوّهم عليه"<sup>٢</sup> رأت أنه الوقت المناسب والفرصة السانحة للكلام، وورد في بعض التفاسير "أنّ موسى مكث ثمان ليالٍ لا يقبلُ ثدياً، ويصيح، وهم في طلب مرضعة له"<sup>٣</sup>، فلما رأت تلك الحال، وأيقنت بمناسبة المقام للمقال؛ تكلمت بخطابها الذي نفذ، كما في القصص القرآني: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾. وتُشيرُ بعضُ التفاسير إلى أنها لما قالت: "وهم له ناصحون" أخذت وكاد أمرها يكتشف، فأجابت: بأنها تعني أنهم "ناصرحون لفرعون لا لغيره، فقال هامان لفرعون: دعوها فقد صدقت"<sup>٤</sup>.

١ فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب البخاري، ج ١٠ / ص ٩٥.

٢ فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب البخاري، ج ١٠ / ص ٩٥.

٣ تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني، ج ٤ / ص ١٢٦.

٤ تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي، ج ٢ / ص ٥١١،

ويُنظَر: التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي، ج ٢٤ / ص ١٩٨، وجامع البيان

للطبري، ج ٢٠ / ص ٥٣.



وفي هذا الخطاب نجدُ أخت موسى كلَّها إشفاق على أن تبلغ الظفرَ بغايتها، فتفوز بأخيها حيًّا، وتفرح قلبَ أمِّها، ومع إشفاقها عليه بعدما رأت رفضه الرضاع من جميع المرضعات، ويقينها بأنه سيقبل الرضاع من أمه التي تعلمها أمُّه ولا يعلمونها، وهي مع ذلك تبقى محتفظةً باتزانها وحكمتها، وتختار العرَضَ على القومِ بجملةٍ استفهامية: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾، وتهمِّمُ فيها بوصف أهل البيت بالنُّصح بجملة اسميةٍ ثقَّةً بثبوت الوصف الذي تقوله فيهم، كما تركَّز في استفهامها على دلِّم لا على شيءٍ آخر؛ ليتها تفكيرهم نحو أن تدلِّم على ذلك البيت لا نحو شيءٍ آخر غيره، فإن سألوها عن شيءٍ فسيكون حسب الخطاب: مَنْ هم، وليس: ما أدراك أنهم مناسبون لدفعه إليهم، وهو ما يرد في بعض التفاسير أنهم شرعوا يسألونها: "مَنْ هم؟ فقالت: أمي، فقيل لها: وهل لأملك لبن؟ قالت: نعم، لبنُ أخي هارون" <sup>١</sup>، "وكان وُلِدَ في السنة التي لا يُقتلُ فيها، فدلتهم على أمِّ موسى، فدفعوه إليها، فقَبِلَ ثديها، ورضع منه، فكانوا يعطونها كلَّ يومٍ دينارًا" <sup>٢</sup>.

١ فتح القدير للشوكاني، ج ٤/ ص ١٦١.

٢ فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب البخاري، ج ١٠/ ص ٩٥.

### الخطاب الرابع: خطاب ابنة شعيب:

في قصة موسى عليه السلام مع بيت شعيب حين ورد ماء مدين... إلى أن جاءته إحدى البنيتين تخبره بأن أباه يدعو ليجزيه أجر ما سقى، فلما أجاب دعوة والدها، وبعد أن قص موسى عليه القصص، وطمأنه شعيب بأنه قد نبى من فرعون وقومه إذ لا سلطان لفرعون على مدين، يقص الله سبحانه وتعالى أن إحدى البنيتين قالت: ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ ﴿٢٦﴾ قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ ﴿٢٧﴾.

### توقيت الخطاب وحكمته:

تختار ابنة شعيب لخطابها وقتاً يُتَوَقَّعُ أن يكون الوقت الأمثل لينفذ لدى أبيها المتلقي؛ فالقصص القرآني هنا يبين أن ابنة شعيب أطلقت خطابها الذي نفذ بعد أن دعا أبوها موسى عليه السلام ليأجره على توليه سقي الغنم، فلما تحدثا وقص عليه موسى خبره، وطمأنه شعيب بأنه قد آمن من القوم الظالمين. فبعد أن عرف شعيب كريم فعل موسى عليه السلام مع ابنتيه، ودعاه إلى بيته، فرآه، وجلس معه، وتحدث إليه، وعلم قصته وحاله؛ يأتي خطاب ابنة شعيب في وقت كان أنسب ما يكون فيه الخطاب، إذ لم تبدأ به

قبل أن تكتمل الصورة عن موسى عليه السلام لدى أبيها، ولم تتأخر فيه إلى أن يُغادرَ موسى عليه السلام بيت والدها فلا يُعلّم إلى أين يصير بعد مغادرته؛ فكأنها تقتنصُ الوقت المناسب للخطاب اقتناصًا. وجاء في الكشف للزمخشري: "﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ كَلَامٌ حَكِيمٌ جَامِعٌ لَا يُرَادُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَتْ هَاتَانِ الْخَصْلَتَانِ؛ أَعْنِي الْكِفَايَةَ وَالْأَمَانَةَ فِي الْقَائِمِ بِأَمْرِكَ فَقَدْ فَرَّغَ بِالْكَرَامَةِ وَتَمَّ مَرَادُكَ؛ وَقَدْ اسْتَعْنَتْ بِهَذَا الْكَلَامِ الَّذِي سَيَاقُهُ سَيَاقُ الْمَثَلِ وَالْحِكْمَةِ أَنْ تَقُولَ: اسْتَأْجِرْهُ لِقُوَّتِهِ وَأَمَانَتِهِ"<sup>١</sup>.

١ الكشف، للزمخشري، ج ٣ / ص ٤٠٣. ويُنظر في ذلك: (محاسن التأويل) للقاسمي، ج ١٣ / ١٠٢-١٠٣.

## لغة الخطاب النافذ:

- يُلاحظُ أنَّ الخطاب في جميع الأمثلة الأربعة كان موجزاً؛ إذ لم يتجاوز خمس جملٍ في أقصى حد، فيمكن عدُّه مؤلَّفاً من خمس جملٍ في خطاب ملكة سبأ: "قالت إنّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها"، "وجعلوا أعزة أهلها أذلةً"، "وكذلك يفعلون"، "وإني مرسلَةٌ إليهم بهدية"، "فناظرَةٌ بم يرجع المرسلون". ومؤلف من أربع جملٍ في خطاب امرأة فرعون: "قُرّة عينٍ لي ولك"، "لا تقتلوه" "عسى أن ينفعنا" "أو نتخذه ولداً". ويمكن عدُّه مؤلَّفاً من جملتين في خطاب أخت موسى: "هل أدلُّكم على أهل بيتٍ يكفلونه لكم"، "وهم له ناصحون". ومؤلف من ثلاث جملٍ في خطاب ابنة شعيب: "يا أبت"، "استأجره"، "إنَّ خيرَ من استأجرت القويُّ الأمين".
- جاء خطاب ملكة سبأ بأسلوب الخبر في جملة كلها، وفي جملتيها اللتين أصدرت فيهما قرارها: ﴿وإني مرسلَةٌ إليهم بهدية فناظرَةٌ بم يرجع المرسلون﴾، نجدها استعملت الجملة الاسمية، والجملة الاسمية "تفيد الثبوت"، ولم تكتف بذلك، بل صدرت الجملة بالتأكيد بأنَّ "وإني...".؛ فلعلَّ موقفَ ملكة سبأ القويِّ من حيث كونها في موقع اتخاذ القرار كان أحد أسباب استعمال الصيغة الخبرية بالجملة الاسمية المؤكدة.

١ التفسير المنير للزحيلي، ج ٢٠ / ص ٦١.

● في حين يُلحَظُ أنَّ الجمل المستخدمة في الخطابات الثلاثة الأخرى امتزجت بين خبر وإنشاء، وكان لبُّ المطلبِ المرغوبِ فيه بأسلوبِ إنشائيٍّ طليبيٍّ، ففي خطاب امرأة فرعون النافذ ﴿قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ نجد لبَّ مطلبها في "لا تقتلوه"، وهو طلب صيغته اللغوية النهي. وكان المطلوب بصيغة الاستفهام لبُّ طلب أخت موسى في خطابها النافذ: ﴿هَلْ أَذُكُّم عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾. وفي خطاب ابنة شعيب النافذ ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ نجد لبَّ مطلبها في "استأجره"، وهو طلب صيغته اللغوية الأمر. ويلحظ هنا أنَّ خطاب امرأة فرعون وابنة شعيب تضمنا طلبًا صريحًا بصيغتي النهي في كلام امرأة فرعون "لا تقتلوه"، والأمر في خطاب ابنة شعيب "استأجره"، أمَّا مطلوب أخت موسى فاستخدمت فيه العرضَ على القوم بصيغة الاستفهام.

● وبمقارنةٍ بين نوع الأسلوب المستخدم (الخبر في خطاب ملكة سبأ كاملاً، والامتزاج بين الخبر والإنشاء في الخطابات الثلاثة الأخرى، مع كون لب المطلوب النافذ في الخطاب جاء بصيغة الإنشاء) نجد أنَّ ملكة سبأ هي التي صنعت موقف الخطاب بعد وصول الرسالة، فهي التي جمعت الملاء، وأطلعتهم على نص الرسالة التي وصلتها من سليمان عليه السلام، وطلبت منهم الرأي والمشورة، ثم بعد ذلك ألقّت خطابها الذي نفذ، وهو ما يمكن وصفها معه بأنها مديرة الحال

التي صدر فيه خطابها. في حين نجد أنّ النساء الثلاث الأخريات (امرأة فرعون وأخت موسى وابنة شعيب) قد وجدن أنفسهن أمام موقف لم يصنعه هن، ولم يُدرّنه حين وقع، بل تعاملن معه بحسبه وبقدر ما امتلكنه من حكمة.

كما تتميز ملكة سبأ في الحال التي صدر فيه خطابها بأنها في موقف الأقوى، فهي الملكة في قومها، وهم يأتمرون بأمرها، وينتهون لنهيها. أمّا النساء الثلاث الأخريات فلم يكن في موقف الأقوى، على اختلاف مستوى الضعف الذي كنّ فيه أثناء إصدار الخطاب، لكنهن يشتركن جميعاً بأنّ البتّ في الأمر المطلوب لم يكن في أيديهن، بل كان يملكه طرف آخر في الأحداث التي وردت فيه خطاباتهنّ النافذة.

ولعلّ هذين الأمرين كانا من أسباب استخدام النساء الثلاث لأسلوب الإنشاء في مختلف صورته؛ رغبةً في مزيد من التأثير في المتلقي، أو الإلحاح على المطلوب في الخطاب.

وبتأمل الإنشاء في خطابات النساء الثلاث (امرأة فرعون وأخت موسى وابنة شعيب) نجد أنّ صيغة الطلب كانت نهيًا مع امرأة فرعون: "لا تقتلوه"، وأمرًا مع ابنة شعيب: "استأجره"، واستفهامًا تعرّض فيه صاحبه وتعرّض برغبتها في خدمة القوم بدلهم على مبتغاهم مع الطفل "هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون"؛ ولعلّ مكانة المرأتين (امرأة فرعون، وابنة شعيب)

لدى متلقي الخطاب تسمح باستخدام الطلب المباشر نهيًا وأمرًا، فهما (زوجة، وابنة)، في حين كانت أخت موسى من عامة الناس لدى المتلقي، ولم يكن لها من الحظوة لديهم سوى ما ركزت عليه في حديثها وهو أنها تعرف أهل بيتٍ سيجدون عندهم مطلبهم وهو ثدي يقبله الرضيع، ورعاية مأمونة.

فلعلَّ مكان صاحبة الخطاب من المخاطب كانت مما أثر في الصيغة اللغوية المستخدمة في الطلب، فجاء الطلب الصريح بالصيغة اللغوية (الأمر والنهي) من الزوجة لزوجها والبت لأبيها، في حين جاء الطلب بصورة الاستفهام من امرأة يُنظرُ إليها اجتماعيًا في الموقف الحاصل بوصفها امرأة عادية من عامة الناس، بل من الطبقة المستضعفة، وتحدث مع أناس ليس لها عندهم صفة اعتبارية تمكنها من استخدام صيغة طلب أخرى غير العرض بصيغة الاستفهام. ولعلَّ استخدام الأسلوبين الإنشاء والخبر لمزيد من الإغراء بالمطلوب؛ نظرًا لأنَّ صاحبة الخطاب ليست في موقع صاحب القرار، فكان لب الطلب بصيغة الإنشاء، واستُخدمت الجمل الخبرية: ﴿قَرَأَ عَيْنَ لِي وَلَكَ﴾ في خطاب امرأة فرعون، و﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ في خطاب أخت موسى، و﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾، لمزيد من التأثير في المتلقي وإغرائه بقبول الطلب.

- باستثناء ملكة سبأ، يُلحَظُ أنَّ النساء الثلاث: امرأة فرعون، وأخت موسى، وابنة شعيب -اشتملَ الجزء الأخير من خطابهنَّ على ما

يمكن وصفه بأنه استُخدِم للإقناع، فامرأة فرعون ترجو بطلبها بقاء حياة موسى عليه السلام أن ينفعهم استبقاؤه، أو أن يتخذه ولداً، والأمران كلاهما مرغوب فيهما في المعتاد لدى البشر (النفع/ الولد). وأخت موسى عليه السلام بعد سؤالها الترغيب تُعقَّب بوصف أهل البيت المذكورين للكفالة بأنهم ناصحون له. وابنة شعيب بعد طلبها من أبيها مؤاجرة موسى عليه السلام تُعقَّب بوصفٍ عامٍ يمكن وصفه بالحقيقة المسلمة اجتماعياً مُلمحةً إلى اتصاف موسى به: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، أي أنّ ختمَ خطاباتها بما يزيد في إقناع المتلقّي لقبول الخطاب، فيؤدي إلى نفاذ مرادها في الخطاب. أمّا ملكة سبأ فيبدو أنّ موقعها الاجتماعي والوظيفي - فهي ملكة تأمر وتنها فتطاع - لم يجعلها محتاجة إلى ذلك، فكان خطابها حين صدر يمكن وصفه بأنه إخبارٌ للقوم بقرار اتخذته، وإنما تنتظر ما ينتج عن ذلك القرار فقط.

- في خطاب ابنة شعيب سارت الجملة الأخيرة مسار المثل فانتقلت من سياقها في الاستعمال العربي لتصبح جملة ترد في كلّ مناسبة مشابهة "إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ"، فهي تقال في كل حال مشابهة أو مقارنة في وصف خير من يُؤلَّى عملاً. ولعلّ التفات الجملة في أسلوبها عن المدح الخاص الموجه مباشرة إلى شخص بعينه وصياغة المدح بتلك الصفتين بأسلوب الحقيقة العامة؛ أعطاهما هذا الاعتقاد من السياق لتصبح في حكم المثل العام الذي يمكن



استخدامه في كل سياق مشابه. ولعلّ ابنة شعيب كما ذهبت تدعو موسى على استحياء استحييت أيضًا من أن تخصّه بالوصف فأطلقته بتلك الصورة العامة التي تشمل موسى عليه السلام، وجاء في الكشف بأنّها "استغنت بهذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول: استأجره لقوته وأمانته"<sup>١</sup>، وجاء في محاسن التأويل في الأسلوب الذي اختارته ابنة شعيب في الثناء على موسى عليه السلام: "وهو أيضًا أجمل في مدح النساء للرجال من المدح الخاص، وأبقى للحشمة"<sup>٢</sup>.

١ الكشف، للزمخشري، ج ٣ / ص ٤٠٣.

٢ محاسن التأويل، للقاسمي، ج ١٣ / ص ١٠٣.

### صناعة مناخ مناسبٍ لِنفاذ الخطاب بتأمُّل البدائل:

إنَّ التأمُّل في البدائل الممكنة التي لم تستخدمها النساء الأربع يُشير إلى أنَّهنَّ تمكَّن من الإسهام في صنع السياق المناسب للخطاب النافذ الذي لقي القبول، أو باختيار الخطاب المناسب جدا للسياق القائم.

فبلقيس حين تلقت كتاب سليمان عليه السلام جمعت الملائكة من قومها، ولا تشير الآيات القرآنية إلى أنها أعلنت لهم عن سبب جمعهم قبل اجتماعهم، ولعلَّ هذا مما أسهم في استعدادهم لتلقي أيِّ موضوعٍ تعرضه عليهم للتشاور فيه دون إعدادٍ مسبقٍ لرأي، فهم قد حضروا ولا علم لهم بالحدِّث، ولا مؤشرات تُشيرُ إلى ما كانت ستعرضه عليهم الملكة قبل سماعهم منها، فالرسول حامل كتاب سليمان عليه السلام هو طائر الهدد، وقد ألقى الكتاب في حجر بلقيس كما تشير بعض التفاسير، أي أنَّ الكتاب لم يطلع على خبره أحد من قومها، ولا هم رأوا غريبا يحضر برسالة فيكون هناك سابق علم بوجود الكتاب. ثمَّ إن بلقيس بعد أن جمعت الملائكة وشرعت في الحديث بالأمر بدأت بوصف الكتاب الذي وصلها بأنه (كريم) قبل أن تقرأ محتواه، وهذا يتضمَّن تهيئةً إيجابية لتلقي المحتوى، ثمَّ إنها طلبت رأي الملائكة قبل كلامها، وبعد سماعها رأيهم، وتفويضهم إياها في الأمر تتخذ قرارها وتُصدِرُ خطابها النافذ.

فيفهم من ذلك كله أنّ بلقيس عملت على حصول موقف مناسب يُسهّم في نفاذ خطابها والعمل به باقتناع، وقد كان يُمكن أن تعلمهم بسبب دعوتهم للاجتماع قبل اجتماعهم، كما كان يمكن أن تقرأ الرسالة حين جمعتهم دون تقديم له بوصف أو غيره لتبقي على الحياد المحتمل تجاهه، كما يمكن أن تبادر برأيها قبل سماع الملأ وتهيئتهم لما تقرره في نهاية الموقف دون أن يُذكر اعتراض معترض عليه فيما بقصه القرآن الكريم. هذا بالإضافة إلى الاحتمالات الأخرى التي قد تتعدد وتتشعب، ولكن الملكة اختارت من بينها العمل على صناعة السياق الذي أصدرت فيه خطابها النافذ وهو السياق الذي قصه القرآن الكريم.

ونجد امرأة فرعون حين استشارت العاطفة لدى فرعون - كما يقصه القرآن - تخاطبه أولاً بصيغة الخطاب للمفرد: ﴿قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾، وهي بهذا تخاطب فيه ذاته منفصلةً عنها في (ولك)، وهو استخدام للغة فيه مزيد من الحفز على الانتباه، وتشير بعض التفاسير إلى أنّ هذا الاستخدام اللغوي قد أثار انتباه فرعون فعلاً؛ إذ يردُّ فيها أنه قال لامرأته بعد قولها الذي يقصه القرآن الكريم: ﴿قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾: "يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي فيه"<sup>١</sup>، وكان يمكن ألا تفصله عنها في حديثها، وهو ما حصل فعلاً فيما

١ جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، ج ٢٠ / ص ٤٤. ويُنظر (تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم) ج ٢ / ص ٥١٠.

بقي من خطابها الذي قصه القرآن الكريم. كما أنّ اختيار امرأة فرعون توحيد الضمير لها ولفرعون في باقي الخطاب يُمكن أن يُفهم منه تناسيها لقول فرعون في جوابه الأول بأنه لا حاجة به إلى موسى لتتجه بالرجاء أن يكون نافعا لهما معا أو يتخذانه ولدا إذ يقص القرآن أنّها قالت بعد ذلك: ﴿لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾ إذ تتجه برجائها إلى أن يكون نفعه وانتسابه المنتظر والمؤمل لهما معا بصيغة الضمير الجامع لهما، والذي يمكن أيضاً أن يفهم منه الرجاء بأن يكون نفعه لآل فرعون جميعاً؛ إذ الضمير (نا) يحتمل الدلالة على الجميع، فهو إن لم يكن قرّة عين لهما معا فعسى نفعه أن يبلغهم جميعاً.

وبتأمل الإمكانات اللغوية، كان يمكن لامرأة فرعون ألا تفصل في الضمير بينها وبين فرعون في جملتها الأولى، وألا تُشرك بينهما في الضمير بعد ذلك في خطابها النافذ، كما كان يمكنُ ألا تركز على استثارة العاطفة في الخطاب في محاولة تبديد مخاوف فرعون.

وأخت موسى عليه السلام يردُّ خطابها في جملةٍ تختار فيها صيغة الاستفهام في عرضها على قوم فرعون أن تدلهم على أهل بيتٍ ترى أنهم يجدون بغيتهم لديها إرضاعاً ورعايةً ونصحاً، وتركّز في الاستفهام على الدلّ ﴿هل أدلكم﴾، فهو عرضٌ منها بصيغةٍ تأخذ مسار الكلام والحوار والحديث إلى حيثُ تريده هي. وكان يمكن أن تختار الإخبار بدلاً من العرض بأسلوب الاستفهام، كأن تقول مثلاً: أعرف أهل بيتٍ صفتهم كذا وكذا، ولكن هذا

قد يقود إلى سؤال القوم: ما أدراك أنهم يصلحون لرعايته، وغيره من الأسئلة في حوارٍ محتملٍ قد يثير حولها وحول موسى الشكوك مما قد يُعيد حسابات فرعون نفسه في استبقاء، وهو ما تورد بعض التفاسير بأنه حصل حين قالت فيما يقصه القرآن ﴿وهم له ناصحون﴾ كما سبق أعلاه.

كما أنّ أسلوب الاستفهام الذي اتخذته في خطابها يجعلها تبدو محايدة لا مشفقة، وكأنها تعرض عرضاً بصيغة يبدو في الظاهر أنها تترك للقوم كامل الحرية في اتخاذ ما يرونه مناسباً؛ إذ المعنى الأصلي لاستخدام الاستفهام هو طلب العلم من المسؤول، فهي كأنها تعرض عليهم وتستوضح منهم إن كانوا يرغبون في عرضها أولاً يرغبون.

كما أنّ أسلوب الاستفهام يستدعي الحوار، فهو طلبٌ في حقيقته، والمستفهم إن لم يحظ بالإجابة عما يسأل فإنه يمكن أن يعيد سؤاله، في حين أنّ أسلوب الإخبار مثلاً بأنها تعرف أهل بيت يمكن أن يكفلوه لا يتطلب إجابةً من الطرف الآخر حين يسمعه، وقد لا يستجب المتلقي بشيء تجاه ذلك الإخبار؛ لأن الخطاب نفسه لا يحمل في ذاته تلك الخاصية، بخلاف الاستفهام، وقد يكون تكرار الخبر عند عدم الالتفات إليه مدعاة لارتياب المتلقي في الشخص أو في الأمر.

هذا بالإضافة إلى الإجراءات الأخرى التي اتخذتها أخت موسى عليه السلام في طريقة البحث عن أخيها حتى وصلت إليه دون أن يشعر بها أحد من القوم، ولا بما تسعى إليه كما سبق، وكان من الممكن أن تتخذ طريقةً

أخرى فيظهر خبرها بسبب ذلك، لكنها اختارت السبيل الأسلم في إكمال صناعة الموقف الذي يصدرُ فيه خطابها النافذ. وعلى الرغم من كونها أضعف النساء الأربع حظوةً وقدرةً على امتلاك المبادرة بالخطاب النافذ لعدم ملكها القرار كملكة سبأ، ولعدم الصلة أو الحظوة لدى المتلقي كأمراة فرعون عند فرعون، وابنة شعيب عند أبيها، على الرغم من ذلك تمكنت من استثمار الظرف المناسب (بمخ القوم عن مرضع موسى عليه السلام) في الوقت المناسب (لما علمت أن موسى لا يقبل الرضاع من المرضعات اللاتي عُرض عليهن) وبأسلوب اللغوي المناسب (العرض بأسلوب الاستفهام مع التركيز على وصف أهل البيت بما يغري القوم بالتعاطي الإيجابي مع عرضها).

وابنة شعيب تختار التوقيت المناسب لخطابها، والتعبير المناسب الذي لا يخدش حيائها، فلا تصف موسى عليه السلام وصفًا مباشرًا، بل تختار عبارةً عامةً شاملةً أشبه بالحكمة السائرة، وكان يمكن أن تطلب من أبيها استئجاره قبل حضوره، لكن الصورة عن موسى لن تكون قد اكتملت لدى أبيها، كما أنه كان يمكن في وصفها موسى بالقوة والأمانة أن تصفه بذلك بأسلوب مباشر، لكن ذلك كان يمكن أن يوقعها في الحرج، فكان أن اختارت الخيار الأمثل وقتًا وأسلوبًا.

## استجابة المتلقي في الخطابات الأربعة:

يُلحَظُ أنَّ القصص القرآنيَّ سكت عن ذكر الرد اللفظي للذين تلقوا خطاب النساء الأربع جميعاً، كما سكت عن أي حدث يمكن أنه حصل قبل حصول نتيجة الخطاب، واتجه مباشرة إلى النتيجة، نتيجة نفاذ الخطاب.

ففي قصة ملكة سبأ مع قومها انتقل القصص القرآني من خطاب ملكة سبأ النافذ: ﴿وإني مرسلَةٌ إليهم بهدية فناظرَةٌ بم يرجع المرسلون﴾ إلى وصول الهدية المرسله إلى سليمان عليه السلام: ﴿فلما أن جاء سليمان قال أتمدوني بما لي فما آتاني الله خيراً مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾، متجاوزاً كلَّ الكلام المحتمل الذي دار في الهدية ونوعها وأحداث نقلها وغيرها من الأحداث إلى حين وصول الهدية إلى سليمان عليه السلام وجوابه لحاملها، وقد تحدث المفسرون في نوع هذه الهدية وأنها كانت هدية ثمينة تليق بالملك<sup>١</sup>.

وفي قصة موسى عليه السلام انتقل القصص القرآني من خطاب امرأة فرعون النافذ إلى مشهد آخر من الحدث في موقع آخر ومع شخصية أخرى غير الشخصيات المعنية بالخطاب النافذ، وهو حال أم موسى عليه السلام بعد إلقائها ابنها في اليم إلى حين رده إليها، متجاوزاً أي كلام أو حَدَثٍ حصل في المشهد الذي نفذ فيه خطاب امرأة فرعون.

١ يُنظر: (فتح البيان في مقاصد القرآن) لأبي الطيب البخاري، ج ١٠ / ص ٤١

وفي خطاب أخت موسى عليه السلام نجد القصص القرآني ينتقل من خطابها النافذ مباشرة إلى النتيجة: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣﴾، وذلك دون التفات إلى ما يمكن أنه حدث من كلام مع أسئلة لأخت موسى عن أهل ذلك البيت كما سبق، أو طريقة رد موسى عليه السلام إلى أمه هل كان بدعوة أمه للقصر، أو بنقل موسى إلى بيتها، وغير ذلك من الأحداث والكلام الذي دار قبل رؤية أم موسى لابنها<sup>١</sup>.

وفي خطاب ابنة شعيب عليه السلام نجد القصص القرآني أيضًا ينتقل من خطاب البنت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ إلى النتيجة مباشرة بعرض شعيب عليه السلام على موسى عليه السلام عقداً الإجارة: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ

١ تحدثت بعض كتب التفسير عن شيء من تلك الأحداث والحوار الذي دار بين أخت موسى وقوم فرعون، يُنظر من ذلك: (فتح البيان في مقاصد القرآن لأبي الطيب البخاري)، ج ١٠/ ص ٩٥، و(فتح القدير للشوكاني)، ج ٤/ ص ١٦١، و(جامع البيان للطبري)، ج ٢٠/ ص ٥٣.



شاء الله من الصالحين<sup>﴿﴾</sup>، دون التفات إلى أي حدث أو قول محتمل بين الخطاب النافذ ونتيجته<sup>١</sup>.

وهذا يلفتنا إلى ما يمكنُ عدُّه أسلوبًا في القصص القرآني بالانتقال من الخطاب النافذ إلى نتيجته وأثره متجاوزًا التفصيلات بينهما أحيانًا وأقوالًا، وكأنه يُعبّر عن الاستجابة بالقبول من متلقي الخطاب بالفعل نفسه الذي يكون نتيجةً لذلك الخطاب النافذ، أي أنّ القصص القرآني يترك الأحداث التالية للخطاب النافذ تعبّر لمن يقرأ القرآن الكريم عن نفاذ ذلك الخطاب، بدلًا من استخدام الكلام للإخبار عن ذلك.

١ وقد ورد في التفاسير ما يفيد أنه حصل كلامٌ بين شعيب وابنته فسأها عمًا أدرها بقوته وأمانته، وأجابته ابنته بما كان من موسى عليه السلام في الأحداث التي كانت له معها منذ أول لقائه بالأختين تزدودان. يُنظر: (تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم) للسمرقندي، ج ٢ / ٥١٥، و(النكت والعيون تفسير الماوردي) للماوردي البصري، ج ٤ / ص ٢٤٨، و(حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسيري القاضي البيضاوي) للقوجي الحنفي، ج ٦ / ص ٤٤١.

## أدوات نفاذ الخطاب:

مما سبق في هذه القراءة للأمثلة الأربعة من خطاب المرأة النافذ يمكن استنباط بعض أدوات نفاذ الخطاب المتوافرة فيه أو في معظم الأمثلة الواردة في هذه القراءة، نجد الأمثلة كلها قامت على اختيار الكلام المناسب، بأسلوب العرض المناسب، في الوقت المناسب في سياقه، كما نجد من أدوات نفاذ الخطاب:

- صناعة السياق المناسب للخطاب وإدارته إدارة مناسبة كما فعلت ملكة سبأ، والمراد هنا أنه كلما كان هناك خطاب مرغوب في توجيهه، وأمکن لصاحب الخطاب أن يصنع السياق المناسب للخطاب، ويديره بصورة جيدة؛ فإن ذلك من أدوات نفاذ الخطاب.
- عدم الاستعجال في إنجاز الخطاب، واختيار الوقت المناسب لإصداره، وذلك كما فعلت ملكة سبأ، وأخت موسى، وابنة شعيب.
- استشارة العاطفة في المتلقي صاحب القرار واستثمارها في تحقيق المرغوب فيه، كما فعلت امرأة فرعون.
- التلطف في القول، واختيار طريقة الخطاب الأنسب، كما فعلت امرأة فرعون، وأخت موسى<sup>١</sup>.
- استثمار جانب الحاجة لدى المخاطب، فامرأة فرعون تستثمر الرغبة في الولد ﴿أو نتخذة ولدًا﴾، إذ يرد في بعض كتب التفسير أن فرعون

١ يُنظَرُ: (التفسير المنير) للزحيلي، ج ٢٠ / ص ٦٩.

"لم يكن له ولد ذَكَر"، كما أن أخت موسى عليه السلام استثمرت حاجة القوم إلى مريض تتولى إرضاع موسى لما علمت أنه لم يقبل المرضعات اللائي عُرضنَّ عليه، وابنة شعيب استثمرت الحاجة إلى من يتولى العمل الشاق الذي يشق على النساء في مخاطبتها أبيها.

- توظيف احتمالات المآل (النتيجة النهائية المنتظرة) بصورة إيجابية، وذلك كما فعلت ملكة سبأ حين نبهت المأل إلى المآل المحتمل إن دخل عليهم سليمان عليه السلام بجنوده وانتصر عليهم فإن ذلك سيتحوّل بأعزة أهلها ليصبحوا أذلة. وكما فعلت امرأة فرعون حين توسّمت أن يكون موسى عليه السلام قرّة عين ورجت منه النفع في مستقبله، وورد في التفسير: "عن ابن عباسٍ قال: لما أتت بموسى امرأة فرعون فرعونَ قالت: "قرّة عينٍ لي ولك"، قال فرعون: يكونُ لك، فأما لي فلا حاجة لي فيه، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "والذي يُحَلَفُ به لو أقرَّ فرعونُ أن يكونَ له قرّة عينٍ كما أقرّت لهداه الله به كما هدى به امرأته، ولكنَّ الله حرّمه ذلك"؛ والمراد بالاستدلال بنص الحديث هنا هو أنّ امرأة فرعون وظفت أملها في المآل المرجو من موسى عليه السلام في خطابها.

١ تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي، ج ٢/ ص ٥١٠.

٢ جامع البيان، للطبري، ج ٢٠/ ص ٤٤. ويُنظر في ذلك أيضاً: (تفسير القرآن)

للسليمي الدمشقي الشافعي، ج ٢/ ص ٤٨٠.

- تطعيم الخطاب بما يزيد في الإقناع بقبول المطلوب فيه ونفاذه، وذلك كما فعلت أخت موسى بوصفها أهل البيت بأنهم "له ناصحون" على الرغم من أنّ هذا الوصف كاد يوقعها في افتضاح الأمر لولا أنها أحسنت التخلّص كما سبق. وكذلك ابنة شعيب حين ختمت خطابها بما يمكنُ عده حكمةً سائرة: "إنَّ خير من استأجرتَ القويُّ الأمينُ".

## ملحوظات:

- يُلحَظُ أنّ ثلاثاً من النساء الأربع كُنَّ ذوات حظوة: بلقيس (ملكة سبأ) وتقوم بوظيفة حاكم مملكة سبأ، وامرأة فرعون (زوجة ملك)، ومعروفة حظوة الزوجة، ولعلها ملكة قلب زوجها أيضاً، والحظوة هنا مشتركة بين قلب الزوج وكون الزوج هو ملك قومها، والحضور الاعتباري الكبير لها في مجتمع الزوج، وابنة شعيب عليه السلام (ابنة تخاطب أباهما) ومعروف حضور البنت في قلب أبيها (فالبت في الغالب ملكة في قلب أبيها). فيمكن عدّ الحظوة واحداً من عوامل نفوذ قرار المرأة ورأيها، أو نقول: الحظوة نصير لرأي المرأة الصائب والنافذ. ولكنّ إحدى النساء الأربع وهي أخت موسى عليه السلام كانت من عامة الناس، ولا وجود لأي نوع من الحظوة المذكورة في الأمثلة الثلاثة الأخرى، ومع ذلك نفذ خطابها، وتمكنت من الفوز بمطلوبها، وهذا يُشيرُ إلى أنّ الحظوة عاملٌ مساعدٌ في نفوذ قرار المرأة، وليس هو العامل الأساس.
- أنّ نفاذ الخطاب لا يتعلّق بلغة الخطاب نفسه فقط، بل إنّ عوامل أخرى مصاحبة للخطاب قد تزيد في أثر الخطاب ونفاذه، وقد تؤدي إلى غير ذلك.

- توقف ذكر أي كلام لبليقيس<sup>١</sup> وأخت موسى وابنة شعيب رضي الله عنهن بعد القصص التي وردت فيها خطاباتهن النافذة في القرآن الكريم، وورد ذكر آخر لامرأة فرعون رضي الله عنها في إخبار الله سبحانه وتعالى عن دعائها في المثل الذي ضربه للذين آمنوا.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

١ ورد في (فتح البيان في مقاصد القرآن) لأبي الطيب البخاري، ج ١٠ / ص ٥٠ أنه "قيل انتهى أمرها إلى قولها (أسلمت) ولا علم لأحدٍ وراء ذلك لأنه لم يُذكر في الكتاب ولا في خيرٍ صحيح".

## ثبت المصادر:

- تفسير السمرقنديّ المسمّى بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، تحقيق وتعليق علي محمد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود وزكريا عبدالمجيد النوني، دار الكتب العلميّة، بيروت.
- تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني منصور بن محمد بن عبدالجبار التميمي المروزي الشافعي السلفي، تحقيق أبي بلال غنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض.
- تفسير القرآن اختصار النكت للماوردي، عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام السلميّ الدمشقيّ الشافعي، قدّم له وحققه وعلّق عليه عبدالله بن إبراهيم بن عبدالله الوهبيّ، دار ابن حزم.
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميميّ البكريّ الرازي الشافعي، دار الكتب العلميّة، بيروت.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر-بيروت، ودار الفكر-دمشق.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعديّ، حققه وضبطه ونسّقه وصحّحه محمد زهري النجار، عالم الكتب.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، اعتنى بتصحيحه وفهرسته مكتب التحقيق والإعداد العلمي في دار الأعلام، دار ابن حزم ودار الأعلام.
- حاشية محيي الدين شيخ زاده محمد بن مصلح الدين مصطفى القوجوي الحنفي على تفسير القاضي البيضاوي، ضبطه وصحّحه وخرّج آياته محمد عبدالقادر شاهين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.
- فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب صدّيق بن حسن بن علي الحسين القنوجي البخاري، عُني بطبعه وقَدّم له وراجعه عبدالله بن إبراهيم الأنصاريّ، طُبِع على نفقة إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، وبذيله أربعة كتب، ربّبه وضبطه وصحّحه مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربيّ.
- النّكت والعيون تفسير الماورديّ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماورديّ البصريّ، راجعه وعلّق عليه السيّد بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب العلمية-بيروت، ودار الكتب الثقافية-بيروت.